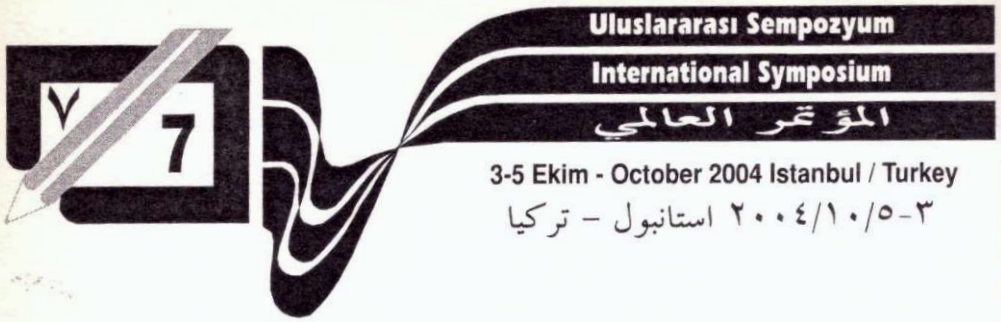

المؤتـــمر العالمي الســـابع
لبديع الزمان سعيد النورسي

ممارسة حياة ايمانية فاعلة

في سلام ووئام في عالم متعدد الثقافات
من خلال رسائل النور

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م
Ekim 2004
الترقيم الدولى
ISBN: 975-269-043-2
شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع

الحوار الحضاري في فكر الأستاذ

بديع الزمان سعيد النورسي

ذ. سمير بودينار
وجدة-المغرب

" بالإقناع يكون الظهور على المدنيين" الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.

لم تزل العلاقة بين الذات والآخر قضية تشغل بال العلماء والمفكرين والمصلحين على امتداد مساحة التاريخ، واتساع رقعة الجغرافيا، وما فتئت الرؤى والمقولات والأفكار تتكاثر حول هذا الموضوع، وتتزاحم على مداخله، مخترقة مجالات الأمم والأديان والثقافات ومنظومات القيم والأفكار كافة.

وكان من نتائج ذلك أن أصبحت قضية العلاقة بين الذات في مستوى الجماعة- أي المجتمع والأمة- والآخر في المستوى نفسه موضوعا لعلوم إنسانية واجتماعية عدة، كعلوم المعرفة، وفلسفة التاريخ، وعلم الحضارة والأنثروبولوجيا، والاستشراق والاستغراب، والعلوم الاجتماعية والسياسية وغيرها، كل من زاويته ومجال بحثه، ثم كانت المعالم البارزة للعلاقة بين المجتمعات والثقافات والأمم المختلفة في العصر الحديث، تلك الرؤى التي تمثلت إلى هذا المستوى أو ذاك أفكار بيئتها، وثقافة محيطها، محاولة صياغة أجوبة تسعف العقل في فهم المستجدات الكبرى التي عرفها مجال هذه العلاقة، وتقدم نسقا من القيم والأفكار، والمواقف النفسية والثقافية والاجتماعية، والرؤى السياسية والاستراتيجية، يمكن من تخطى إشكالات هذه العلاقة الخالدة في حضورها وإلحاحها، والتباسها واستشكالها معا.

و لم يكن الفكر الإسلامي خارج تلك الحركية اللافتة التي عرفت أجلى صورها خلال القرنين الماضيين، إذ توالت أفكار النهوض ودعوات الإصلاح، تسعى إلى جبرما انكسر في علاقة الإنسان المسلم بمصدر التشكل المعرفي عنده،عل إصلاح هذه العلاقة، يكون مدخلا لإدراك الذات والآخر في سياق الالتقاء الحق، وصياغة رؤية حية ومتجددة للعلاقة بينهما، تستطيع أن تجعل من الإنسان المسلم –وهو مادة بناء لصرح الأمة– نافذة لهذا الصرح، تشع منها قيم أمته وثقافتها على غيرها من مجتمعات وأمم بني الإنسان.

ولقد كان الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رجلا من رجالات هذه المهمة الكبرى بامتياز، ليس لما تجلى من رحيق أفكاره وتأملاته على هذا المستوى فحسب. بل لأن تفسيره الذي يوصف بأنه تفسير (شهودي) لمعاني القرآن الكريم، ورؤاه النورانية في معاني الإسلام وقيمه وأحكامه، التي ارتضاها أساسا ومادة لبناء صرح الإيمان في نفس الإنسان، ليفيض من إيمانه على ما حوله من عناصر الوجود، قد أمدانا بإطار مرجعي نادر لنمط العلاقة المأمولة بين التجارب الحضارية المختلفة.وذلك أمر تمس إليه الحاجة في مجمل الدراسات التي حاولت وضع تصور للعلاقة بين تلك التجارب، قائم على إدراك ماهية الحضارة وحقيقتها وغايتها أولا، وعناصرها التي تمتد مكملة جامعة بين تجارب البناء الحضاري المتعددة ثانيا. وليس ذلك غريبا على رجل كانت حياته نفسها تجليا، ومساره محطات تواصل وتقاطع والتقاء وتفاعل بين نماذج ثقافية وحضارية مختلفة ، فقد استوعبت فيه العقيدة الإسلامية انتماءات العرق الكردي، والثقافية التركية والحضارة العثمانية،ومثلت هجمة الحضارة الغربية على بلاد الإسلام وما تلاها من تداعيات وأحداث جسام محطة تحول بارزة في حياة الرجل ومساره الفكري بعد أن شهدت سنوات الحرب العالمية الأولى هزيمة الدولة العثمانية أمام قوات الحلفاء، فكانت تلك هي مرحلة ولادة سعيد الجديد ، الذي صبر كما قال لتلاميذه على آلامه الشخصية كلها، غير أن مشهد حوافر الخيول الإنجليزية واليونانية والروسية والإيطالية ، وهي تطأ أرض تركيا، وتحتل إستانبول عاصمة الخلافة، كان أكبر وقعا على نفسه وأشد إيلاما لروحه من أي ألم آخر.

فكان مسار حياته كله سلسلة متصلة الحلقات من الحكمة والبيان، يجلي معاني القرآن، ويسبر غوره، ويبين دقائقه، فأعطانا بتفسيره فهما لمعان أساسية تمس الحاجة إليها اليوم أكثر من أي وقت مضى، إن لشدة حاجة أمته إلى عناصر الهداية والرشد كافة، أو لجنوح ثقافات العالم إجمالا، إلى مد الجسور وتبادل الرؤى، علها تقف في وجه إرادة الطغيان والاستبداد، التي أطلت برأسها مع حضارة الغرب الحديث ساعية إلى فرض نموذجها على الناس أجمعين، ومبشرة بنهاية التاريخ عند نقطة علوها في العالمين، ذلك أن الحديث عن الحوار بين حضارات متعددة, ومحاولات إقامة نمط جديد في العلاقات فيما بينها قائم على الاعتراف، وبالتالي التحاور والتبادل والتعايش، في غياب معرفة ماهية هذه الحضارة عموما وخاصيتها الثقافية خصوصا، يعبر عن عمق أزمة فكرية ملحة، فالاتجاه إلى الحوار بمختلف أوجهه وتعدد مستوياته لا يمكن أن يتخطى عوائق سوء الفهم، وتباين النظرة إلى الحضارة نفسها، والتمييز الدقيق بين تجربتها التاريخية في بيئة ما، وبين خصائصها العامة وقوانينها الثابتة في التجارب الحضارية المختلفة لمجتمعات وأمم وشعوب العالم.

ومن هنا كانت الحضارة نفسها، محدداتها وغاياتها والنظرة إليها ومختلف التصورات التي تتوزعها، المدخل إلى وعي ثابت بآلية اشتغالها، ما يكسب أداة قيمة في تأسيس حوار دائم وثابت بين الحضارات قائم على أسس لا تنقض، ونظرة متطلعة باستمرار نحو المستقبل.

*** ماهية الحضارة :**

يـــعتبر مفهوم الحضارة واحدا من أكثر المفاهيم مركزية في الثقافة المعاصرة، ويكفي أن يستعرض المرء جملة ما كتب وما يزال في تعريف الحضارة ودراسة أسسها وغاياتها وما يصاحب ذلك من اختلاف في الرؤى وتباين في النتائج، ليدرك أهمية المبحث من جهة باعتبار الحضارة هدفا أسمى لحركة التطور في المجتمعات، وصعوبة إعطاء خلاصات دقيقة ونهائية حوله من جهة ثانية، فمنذ انتقال لفظ الحضارة إلى القاموس العربي مترجما عن لفظ "Civilization" في بدايات القرن

العشرين [1] بدأ التباين في تحديد مفهومه، بل إن ذلك ليس خاصا بالدراسات العربية في هذا الباب وحدها، بل هو سمة عامة للبحث في مجال الحضارة، فقد اتسعت مدلولاتها لدى الباحثين المعاصرين، رغم عدم اتفاقهم على إعطاء تعريف موحد لها، لا في اللغة العربية ولكن في اللغات الأوروبية المختلفة[2].

وإذا تتبعنا مفهوم الحضارة في سياقاته المختلفة أمكننا القول أنه بناء لا يقوم إلا على أسس تمتد بينها علاقة تكامل وتجاوب، وتلك الأسس الكبرى هي المادة والثقافة والأخلاق. ولقد كان للأستاذ النورسي رحمه الله رؤى ثاقبة ، وإشارات بليغة تتصل بهذه العناصر كلها، إضافة إلى آرائه وتأملاته ومواقفه الشخصية، التي تفسر ذلك الإطار المرجعي للعلاقة بين مختلف الثقافات، وشتى السياقات الحضارية، على اعتبار أن الحضارة في النهاية إنما هي مفهوم واحد بخصائص متفردة، وإنما يقارب الإنسان ذلك المفهوم من خلال تجاربه بقدر تمثله لتلك الخصائص والسمات، وإنما ينشأ التفاوت بين التجارب المختلفة بتفاوت مستوى ذلك التمثل.

ولا شك أن الحديث عن حوار بين تلك التجارب الحضارية يحتاج أولا إلى تحديد معالم مفهوم الحضارة من خلال هذه الأسس الثلاث.

1-المادة أساس الحضارات المشترك.

بقدر ما كانت المادة بمعنى المقدرات المادية الموجودة في الكون أداة مشتركة لتجارب الإنسان المتعددة في بناء الحضارة، بقدر ما صارت مجالا لتعدد الرؤى والمواقف حولها، فقد اتسمت الرؤى الإنسانية إلى معطيات المادة ومقدرات الكون، التي استطاع الإنسان استثمارها عبر مسيرته التاريخية بالتباين الواضح، إذ في الوقت الذي اعتبرت هذه المقدرات هبة إلهية عند البعض، مثلت لدى البعض الآخر نتاجا طبيعيا واقعا تحت سلطة الإنسان نفسه، وتوزعت النظرة إلى الكون كله، والبيئة الطبيعية للإنسان بوصفها مصدر عناصر المادة اللازمة لتشييد حضارته، بالاختلاف الواضح، ولذلك نجد الأستاذ بديع الزمان النورسي يقف مطولا عند مصدر المادة (الطبيعة) شارحا ومبينا لتتضح في ضوء معنى الطبيعة حدود قدرة الإنسان ودوره في الحياة، يقول: " الطبيعة التي يتعلق بها الطبيعيون إن كان لا بد أنها مالكة لوجود

حقيق خارجي فإن هذا الوجود هو : صنعة صانع ولن يكون صانعا، وهو نقش ولن يكون نقاشا، ومجموعة أحكام ولن يكون حاكما، وشريعة فطرية ولن يكون شارعا، وستار مخلوق للعزة ولن يكون خالقا، وفطرة منفعلة ولن يكون فاطرا فاعلا، ومجموعة قوانين ولن يكون قادرا، ومسطرا ولن يكون مصدرا"[3] فالطبيعة عند النورسي " شريعة فطرية، تجل للإرادة الإلهية في إدارة الأكوان" [4]. لا مجرد موجود تحت سيطرة الإنسان،لأن "الطبيعة هي محصلة وخلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون" [5]كما يقول الأستاذ النورسي. هذا إلى جانب أن عناصر المادة المبثوثة في الكون لا تستجيب للإنسان إلا في إطار علاقة "التسخير" وفـــق قانون الحركة والسعي دون غيره من القوانين، بمعنى أن المادة هي في قمة درجات الحيادية في علاقتها بالإنسان – مطلق الإنسان- بقطع الصلة مع طبيعته الثقافية وخصائص مشروعه الحضاري ووجهة استغلاله لمعطيات الكون، بل إن الكون بما فيه إنما وجد ليكون في خدمة الإنسان وهو بصدد تحقيق رسالته في الوجود ، وعمارة الأرض" فالإنسان قيمة عالية ، بدليل أن السماوات والأرض مسخرة لاستفادته، وكذا إن له أهمية عظيمة بدليل أن الله تعالى لم يخلق الإنسان للخلق، بل خلق الخلق للإنسان، وإن له عند خالقه لموقعا بدليل أن الله تعالى لم يوجد العالم لذاته بل أوجده للبشر، وأوجد البشر لعبادته"[6].

إن تأمل مسار الإنسان في علاقته بالعنصر المادي لحركة الحضارة، تمدنا بقواعد ثلاث أساسية، يضيئها لنا القرآن الكريم بإشارات هامة للغاية، وهي :

❶ أن الإنسان مؤهل لتحقيق مهمة الاستخلاف، التي أناطها به الخالق (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفـــة)(البقرة:29)،(هو الذي جعلكم خلائف في الأرض)(فاطر: 39)،

وهي حقيقية يعبر عنها الأستاذ النورسي بقوله " إن من هيأ جميع ما في الأرض لاستفادته، وسخرت له الأنواع، له أهمية عظيمة تشير إلى أنه النتيجة للخلقة"[7].

❷ أن الكون موقوف من الإنسان موقف التسخير لأداء هذه المهمة، (ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض)(الحج: 63)،

❸ أن المادة محايدة في علاقتها بالخلفية الثقافية أو الأخلاقية للإنسان،(كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا)(الإسراء:20)،

فبناء حضارة ما إنما هو متعلق باستجابة الإنسان لهذه القوانين، ومضيه ساعيا وفق مقتضياتها، وذلك وجه من أوجه الاستجابة للإرادة الإلهية من خلقه، إذ أن تلك الإرادة عينها هي التي سطرت تلك القوانين، وذلك هو المعنى اللطيف الذي يجليه الأستاذ النورسي بحديثه عن " الطاعة والعصيان" " التكوينيين" الذين يوازيان الطاعة والعصيان الشرعيين، فيقول:"إن هناك طاعة وعصيانا تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعة وعصيان تجاه الأوامر التكوينية"[8]، كما أن الانتكاس في سلم التقدم المادي، إنما هو نتيجة لتعطل قانون" الكسب متعلق بالسعي" ومن هنا وجدنا أن الأستاذ النورسي حين يناقش هذه المسالة ويبحث في سبب افتقار المسلمين بعد أن كانوا أغنياء يلاحظ أو أول السببين في ذلك هو:" الفتور في السعي ومخالفة الأمر الرباني القاضي بـــ" أن ليس للإنسان إلا ما سعى" (النجم38) وإلى انطفاء جذوة شوق الكسب المستفاد من الأمر النبوي" الكاسب حبيب الله "[9] والخلاصة أن حضارة الإيمان التي دعا إليها النورسي والتي يحتاج إليها العالم اليوم، ليست معفاة في عملية النهوض والتغيير من الخضوع لقوانين الكون والأخذ بها على الدوام، كما يوضح بقوله" إن من يشق طريقا في الحياة الاجتماعية، ويؤسس حركة ،لا يستثمر مساعيه، ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرقي، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون[10] وإن بذل المادة للإنسان وفق هذه القوانين –مما يجعلها تحت تصرفه حسب أخذه بهذه القواعد التي لا تتبدل والتي تمثل واسطة علاقة "التسخير" بينه وبينها– ما يدعو بالضرورة إلى التفاوت في مستوى اكتساب مقدرات المادة وتسخيرها حسب الأخذ بتلك القوانين ، لهو أحد أجل مظاهر الحكمة ، إذ يفضي إلى الحاجة لتبادل المنافع المترتبة عن استثمارها، فالتفاوت في درجة استثمار عناصر الطبيعة يؤدي حتما إلى ضرورة التبادل تبعا لحاجة الجماعة البشرية إلى غيرها من الجماعات، وليس غريبا تبعا لهذا أن يكون التواصل بين المجموعات البشرية بتبادل المنافع المادية وفق أنماط بدائية من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية هو أول ما ميز حركة

التواصل والتبادل بين المجتمعات الإنسانية –التي يصدر كل منها عن خلفية مختلفة – منذ أقدم العصور.

وإذا كان العدل هو أمثل مجال لحوار حقيقي ومثمر فإن حيادية المادة وتسخير الكون للكائن الإنساني، بالإضافة إلى تساوي الاستعدادات الفطرية عنده هي أهم ركائز هذا العدل في مجال بناء الحضارات، ذلك أن هذه المبادئ تمنحنا فرصة التأمل فيما كان ولا يزال متاحا للإنسان من آفاق البناء والعطاء على قاعدة تحقيق رسالته في الوجود (الاستخلاف)،"لأن حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه هي معرفة خالق الكون سبحانه والإيمان به والقيام بعبادته"[11]، كما يقول الأستاذ النورسي في تفسيره للآية الكريمة(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات 56)

2–الثقافة: الموجه الحواري للحضارات:

إن الانطلاق من الأسس الفلسفية لعلاقة الإنسان بالحياة، كما تتجلى في معرفة الإنسان، خصائصه وغايته، ومعرفة الكون جوهره ومعناه، هو الذي يعطي الإنسان رؤية خاصة للعالم من حوله ولرسالته فيه، وهي رؤية تشكل خلاصة طبيعته الثقافية ككائن اجتماعي.

وإذا كانت الثقافة إطارا من السلوك يبدعه الأفراد انطلاقا من مصادر التشكل المعرفي عندهم، ثم تتبناه الجماعات، بحيث يكون هوية تميز جماعة إنسانية ما عن غيرها. فإنها بهذا المفهوم تصنع شخصية الإنسان إذ توجه أهدافه وتحدد أسلوب حياته وتحفظ عليه استمراره واستقراره الاجتماعيين، فالشخصية الإنسانية إذن هي من صنع الثقافة، بل هي نتيجة لها. ومن هنا كانت أهميتها باعتبارها صانعة لشخصية الإنسان، وبالتالي الموجه الأبرز لمساره الحضاري، ونموذجه في البناء والتمدن، وبكلمة فإن الثقافة هي الحضارة الخاصة بأمة من الأمم، تحمل أسلوب هذه الأمة وتتسم بسماتها، ولذلك احتاجت على الدوام إلى مصدر متعال على الإنسان، ليكون قادرا على تشكيل المعرفة التي يتغذى منها عقله وروحه، أو كما يقول بعض مفكري الإسلام" إن الحضارة تعلم، أما الثقافة فتنور، تحتاج الأولى إلى

تعلم أما الثانية فتحتاج إلى تأمل"[12]، ومن هنا كانت الحاجة في عالم المسلمين إلى تنشئة الأجيال الجديدة على ثقافة تستمد من المصدر العلوي الذي يحيي فيها خاصية الرسالية، في خضم العمل والبناء، ولقد كانت تلك رسالة النورسي الذي أكد دوما على أنه لا بد من نشأة الأجيال وفق النظام الإيماني والأخلاقي للإسلام بأسلوب تربوي مؤثر، إذا أردنا أن نتلافى المساوئ ونحث على الحسنات في الثقافة التي تعد حياة الأمة[13].

والثقافة التي تؤسس بنيان حضارة المسلمين من جديد وتوجههم إلى ذلك منفتحين على تجارب غيرهم آخذين عنه ما ينفعهم ،ليس لها أن تسود إلا بهذا النظام الإيماني الذي يجمع للإنسان المسلم علمي الوحي والكون الذي يدل الواحد منهما على الآخر" فالكتابان المسطور والمنشور متكاملان متفاعلان، يستحيل عليك أن تقرأ القرآن، دون أن يلفت نظرك إلى عظمة الكون بمخلوقاته وأركانه المختلفة[14]. ومعرفة علمية متينة بمعرفة إيمانية راشدة موجهة، وبهذا كما يقول الأستاذ النورسي " يكون حامل هذا العلم (العلم والمعرفة الإيمانية) فاعلا حيويا على مستوى عال من القدرة والمكنة والإتقان والتمثل لمنهج الوحي وشريعته وعقيدته"[15]وبذلك تتحد في ثقافة المجتمع المسلم الطاقة المادية بالطاقة العلمية على مثال راشد يبني ولا يهدم، ويشيد ولا يدمر، لأنها ثقافة توظف العلم لعمارة الأرض وإزهارها لا في محاولة السيطرة على الوجود[16]. ولذلك أسس المنهج النورسي لثقافة البناء الذي يسالم الطبيعة ولا يفتر عن السعي إلى اكتشاف قوانينها، لأنها تمده بالمعاني والمعارف بشكل دائم ومتجدد إذ " إن مهمة العلم في مفهوم المجتمع الإسلامي المتحضر ليست هي قهر الطبيعة أو الانتصار عليها، بل التلطف مع الطبيعة والجد في اكتشاف قوانين الله فيها" كما يقول.

لقد أوجد الله سبحانه وتعالى الإنسان على حال من القابلية لتلقي هذا الكم الهائل من المعرفة المتاحة له ليحسن بها حاله وتهذب مدنيته، فإذا أدرك الإنسان حقيقة هذه القابلية فاستثمرها مدفوعا بلذة المعرفة أدرك منـــزلة الفعل أو (الفعالية) بلغة الأستاذ النورسي، وهي لذة تتحقق بإصلاح الكون وعمارته وتنميته فيبتعد الإنسان والمجتمع عن مظاهر العدم المرادفة للألم، وتلك فلسفة كاملة في بناء

ثقافة الإنسان، الفاعل في بيئته، القادر على البذل والعطاء والانماء استجابة للحقائق المتجلية فيه، يقول الأستاذ النورسي" حيث إن صاحب كل قابلية يرقب بلهفة ولذة ما ينكشف عن قابلياته بفعالية ما، وإن تظاهر كل استعداد بفعالية إنما هو ناشئ من لذة مثلما يولد لذة، وإن صاحب كل كمال أيضا يتابع بلهفة ولذة، تظاهر كمالاته بالفعالية... إن كل نوع من أنواع الفعالية – جزئيا كان أو كليا – يورث لذة، بل إن في كل فعالية لذة، إن الفعالية نفسها هي عين اللذة، بل الفعالية تظاهر الوجود الذي هو عين اللذة، وهو انتفاضة بالتباعد عن العدم الذي هو عين الألم[17].

وإذا كانت الحضارة تبدو من خلال عناصر بنائها نموذجا محايدا وقابلا لإعادة الإنتاج –مع مراعاة الخصوصيات والسياقات التاريخية المتميزة– فإن الرؤية التي تحكم أي طرف من الأطراف الكثيرة المساهمة في مسيرة الحضارة الإنسانية، عبر إنتاج نماذجها المختلفة ،تمتلك دورا حاسما في تحديد مسار هذه الحضارة. فرؤية الإنسان لنتاج إبداعه الحضاري وموقفه من معطيات المدنية التي يحيا في كنفها تمثل تحديدا لوجهة هذه المدنية وما يمكن لها أن تساهم به في تفاعلها مع غيرها، وتمثل الرؤية الغربية للحضارة عموما و"لحضارتها" الذاتية على وجه الخصوص مدخلا رئيسيا لمعرفة علاقة البناء الحضاري بالرؤية التي تحكم الإنسان في علاقته بهذا البناء.

لقد مثلت الحضارة الغربية خلال القرون الخمسة الماضية على الأقل محور الحضارات العالمية حتى مضى البعض إلى وصم هذه الفترة الزمنية بأنها "قرون الغرب"، فقد أدى الإنجاز الغربي على صعيد مراكمة التجربة في البناء خلال هذه المرحلة إلى حالة من "مركزية الذات" عنده دفعت كثيـــــرا من منظريه إلى محاولة الـــرقي بالتجربة الحضارية الغربية إلى مستوى "الحضارة" بصيغة التعريف، أي اعتبارها النموذج الأرقى المستوفي لكافة معايير وشروط الحضارة الإنسانية، وأنها تبعا لذلك سقف التجربة الإنسانية وبالتالي "نهاية التاريخ"[18]، غير أن حركة الثقافة في الغرب تشي بوجود أكثر من مستوى في منهج التعامل مع الآخر، وهي حقيقة أساسية ينبغي ألا تغيب عن أي مشروع فكري للبحث عن المشترك ،ومد الجسور التي تتأسس عليها الثقافة الحوارية الإيجابية، وما أحوج الفكر الإسلامي

المعاصر الذي يتلمس اليوم طريق الدفاع عن الإسلام في وجه خصومه، وبيان حقائقه وتجلية فضائله للعالم، إلى هذه الرؤية الإيجابية نحو الآخر التي تتأمله وتدرسه حتى إذا ما استوعبته وأدركت تفاصيله تعاملت مع واقعه ومستقبلاته بأنجع الأساليب وأكثرها ملاءمة، فلا تنظر إليه بتعميم يعمي عن الأجزاء والتمايزات والتيارات الداخلية فيه، لأن ذلك شأنه أن يدفع إلى حوار من منطلق خاطئ وبوسائل غير ذات فاعلية، لقد كان للأستاذ النورسي رؤية إيجابية متقدمة فعلا على هذا المستوى وهو ينظر إلى أوروبا قبل سبعين عاما مضت فيقول عنها:" إن أوروبا اثنتان إحداهما هي أوروبا النافعة للبشرية... وأوروبا الثانية هي تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها وتوهمت مساوئها فضائل"[19]، وبعد هذه المدة وفي الوقت الذي نجد بعد استقراء آراء نخبة من مفكري الغرب أن "نفي الآخر" يكاد يكون أحد ثوابت الفكر الغربي[20]، وأن العلاقة بين الغرب والآخر هي علاقة انفصال واغتراب، وبذلك كان أمرا طبيعيا أن تتسم بالعداء، إذ أن الهدف النهائي لإنسان الغرب الحديث تحدد في معرفة العالم وفهم قوانينه من أجل السيطرة عليه[21]، نجد أن البعض الآخر يسعى للتصدي لهذه السيطرة في كافة صورها وتجلياتها، بما فيها تلك التي تتبدى فيما يسمى "الاستبداد العذب"[22]،وهو صورة من صور الهيمنة الثقافية التي ترقى إلى مستوى الإكراه على المضي في مسار التجربة الغربية،أو حتى إحدى تجاربها الجزئية، لكنها في الوقت نفسه لا تكاد تتبدى إلا في صور من "الرقي"، أو السعي نحو إحلال مظاهر أخاذة تخفي حقيقة الاستبداد،مستحضرين ذلك الإنذار الذي أطلقه "ألدوس هكسلي"(Aldous Huxley) محذرا من تبدي مظاهر الطغيان والهيمنة في مظهر مغر أحيانا، حين يقول:«في عصر التكنولوجيا المتطورة، فإن الخطر الأكبر الذي يتهدد الأفكار، الثقافة والروح، يرجح أن يأتي من عدو باسم الوجه، أكثر من خصم يوحي بالرعب والكراهية»[23].

3–الأخلاق: ميزان التفاضل بين الحضارات

لا شك أن الإلمام بأهمية العنصر الأخلاقي في بنية الحضارة، يحتاج إلى حديث واف يشمل علاقة الميزة الأخلاقية للإنسان، بمساهمته في بنائها ،وأهمية البعد

الأخلاقي في الحفاظ على مكتسباتها، و خطورة تراجع أهمية هذا البعد، وغير ذلك مما يلخصه فيلسوف الحضارة الغربية "شبينغلر" بالقول: « إن الدستور الحضاري لا يتمحور حول العقل، بل حول الوجدان»، إلا أن الحديث عن التجارب التاريخية المختلفة للحضارات ، ومحاولة استخلاص الدروس منها ،ربما كان هو الأوفق في مثل هذا المقام للوصول إلى ذلك الهدف، لأن الزمن محك لا يخطئ في الحكم على مآلات الأفكار والقيم والأخلاق معا، سواء تجلت في حياة الإنسان فكرا وسلوكا، أو في نموذجه الحضاري، يقول الأستاذ النورسي: " إن الزمن مفسر كبير فإن أظهر قيده فلا يمكن الاعتراض عليه[24].

وفي هذا العصر فإن الدارسين لمسار الحضارة المعاصرة خاصة في نموذجها الماثل في عالم اليوم، لم يعودوا يختلفون على معاناتها من جملة أخطار، يتصدرها الخلل في التوازن الإيكولوجي للكوكب الأرضي،الذي يهدد كامل الوجود البشري ومستقبله على ظهر هذا الكوكب والذي يمثل "احترار الأرض" مظهرا بارزا وملحا من مظاهره، إلى جانب الاتساع المتزايد في الفجوة بين القلة الغنية التي تملك والأغلبية الساحقة من الفقراء (80% من ثروة العالم يملكها 20% من سكانه بينما تتقاسم الـــ 80% الباقية ما لا يتجاوز خمس هذه الثروة) خاصة مع استشراء نمط الثقافة الغربي الذي يهيمن عليه السلوك الاستهلاكي الموصوف بأنه نظام "لا عقلانية العقلانية" والذي يتخذ مما أصح يسمى ظاهرة الماكدونالدية (Macdonaldization) شعاره الأبرز [25]، وما يمثله هذا الاتساع من خطر هائل على الاستقرار الاجتماعي والسياسي للأغلبية من دول العالم، وبالتالي على قدرة الجماعة البشرية على العيش المشترك، وهو ما بينه الأستاذ النورسي من خلال آثار خضوع النموذج الغربي في التنمية لقوانين السوق المنفلتة من البعد الإنساني، حين كان يحدثنا عن: " الفروق الظالمة والكبيرة في الحياة المعيشة"[26] كما أن الاستخدام غير الأخلاقي لمعطيات الوارثة على كافة المستويات النباتية والحيوانية بل وحتى البشرية، أصبح اليوم هما مشتركا لكل من يعنى بالمستقبل الأخلاقي للكائن البشري، هذا بالإضافة إلى التردي في القيم الاجتماعية والأسرية والانهيار الأخلاقي غير المسبوق.

إن هذا الواقع الذي يعرفه العالم من خلال نموذجه الحضاري الراهن يؤكد مجددا حاجة هذا النموذج إلى الإيمان وإلى المعرفة الإيمانية، وهما جوهر الرسالة التي حملها النورسي إلى العالم حينما كان يقول: " فالإنسانية لا تترقى وتسمو بالتقدم التقني والعلمي والصناعي، إذا لم يتبع هذا التقدم تقدما إيمانيا خالصا"[27].

ولأنه كان يدرك مبلغ الأثر الذي أحدثه اللقاء الاضطراري بين النموذج الوافد وبين عالم المسلمين، وحجم الخلل الذي أحدثه ذلك اللقاء في بنية الإنسان المسلم وعلى مسار حضارته فإن المشروع الذي عمل له في هذا السبيل كان هو" تحريك الجهد التربوي لإشباع الأرواح بمدنية القرآن في مجتمع تزلزلت مدنيته، وأسمى درجات المدنية من حيث الروح هي بلوغ الإيمان كما يلقنه القرآن، ومن حيث المجتمع هي بلوغ الأخلاق كما يعلمها القرآن"[28]، فإذا تهذبت النفوس بالإيمان عرف المجتمع معاني الرشد كلها وتسدد مساره الحضاري وسادت فيه موازين الأخلاق.

إن أقوى الحوافز التي يمكنها أن تدفع الإنسان إلى الإتقان والإجادة في كل شيء، وإلى البعد عن كل ما يضر بذاته أو بالمخلوقات، هو ارتباطه بمصدر الهداية الذي يهبه الإخلاص والسعي إلى إرضاء الخالق سبحانه، ومن هنا كان اهتمام الأستاذ النورسي بجانب الأخلاق في بناء الحضارة، تلك الأخلاق التي تستمد من عقيدة الإسلام فتكون أثرا للإيمان بكافة معانيه " فالذي يجعل الإنسان يحرز الإخلاص هو تفكره في أن الدافع إلى العمل هو الأمر الإلهي لا غير، ونتيجته كسب رضاه"[29] كما يقول، والحضارة التي يبنيها هي حضارة الأخلاق التي تبدو فيها أعمال الإنسان كافة عبادة في محراب الحياة، فلا تنافي فيها بين الدنيا و الآخرة، ونتيجة العبادة فيها" وثمرتها وفوائدها أخروية، إلا أنه لا تنافي إذا منحت ثمرات تعود فائدتها إلى الدنيا"[30]، كما يقول الأستاذ النورسي.

ولقد كان من آثار تراجع تلك الأخلاق في ثقافة المسلم أن اختل بناؤه الحضاري في كل مجال، فتراجعت قدرته على العطاء، بل إن هذا الاتجاه قد أثر على المستوى المادي للإنسان المسلم نفسه، وهنا نجد الأستاذ النورسي يمضي في تحليل

الخلل في البناء القيمي للإنسان المسلم وآثاره على بنيان حضارته ،فيرى مثلا أن: " الذي أحال واقع المسلمين إلى وضع الفقر والإدقاع هو التوجه العام ،الذي يجعل الفرد المسلم لا يقبل إلا على الوظيفة الحكومية، فهو إنسان نفار من العمل اليدوي"[31] إلى غير ذلك من الآراء والاستنتاجات.

*محددات الحوار الحضاري عند الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي

قد لا يكون من المبالغة القول: أنه ليس ثمة كبير إضافة فيما يحاول البعض اليوم –في خضم السعي إلى إقامة أسس للحوار بين الحضارة الإسلامية وغيرها- إبرازه من مظاهر الرقي والعظمة وجوانب التفاعل والتسامح والقدرة على التبادل والتجاوب في الحضارة الإسلامية، خلال مراحل الإزدهار من تاريخها الماضي، فذلك كله أو جله هو محل اتفاق بيننا وبين الجانب الأعظم من الدارسين الغربيين لتاريخ وحضارة المسلمين، خاصة المنصفين منهم وهم الطرف الأساسي والمجال الأهم لحوارنا، إنما الأولى والأوفق هو السعي إلى إبراز قدرة المبادئ والقيم التي أنتجت لنا هذه الجوانب المشرقة في تاريخ الإنسان على إعادة إنتاج النموذج نفسه عبر الزمان والمكان، من خلال المبادئ العامة التي لا تتغير، والواقع أن" من يطالع رسائل النور للإمام بديع الزمان سعيد النورسي يجد أن الحوار بمفاهيمه ومعانيه التي ترقى بالإنسان قد جاءت في مواضيع كثيرة أهمها:

- حوار الإنسان مع نفسه...
- حوار الإنسان مع الإنسان...
- حوار الحضارات، وذلك لأن العناصر الخارجية ضرورة حتمية لا تستغني عنها حضارة مهما سمت وارتقت، ويكاد يكون معروفا أن (الملاحق في فقه الدعوة)[32] للإمام بديع الزمان سعيد النورسي، عبارة عن مجموعة مكاتيب جرت بين النورسي وطلابه الأوائل"[33].

غير أن الجانب الأكبر من اهتمام الأستاذ النورسي في مجال الحوار مع الآخر كان هو إبراز قيم الإيمان التي أسست ولا زالت قادرة على تأسيس حضارة الإسلام، والتي نحاول في هذا المقام استدعاء الجوانب المتعلقة بالعلاقة مع الغير منها، ما يقتضي الوقوف عند أصل القيم والقواعد العامة التي تضبط العلاقات في الثقافة الإسلامية.

1-المبادئ العامة للعلاقات في الثقافة الإسلامية

❶التكريم الإلهي للإنسان: مطلق الإنسان، بغض النظر عن دينه أو عرقه أو جنسه أو لغته

(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (الإسراء70) ويترتب على هذا أن الإنسان مصون وأن نفسه محترمة لمجرد دخوله الدائرة الإنسانية، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:"مرت بنا جنازة، فقام النبي وقمنا، فقلنا يا رسول الله إنها جنازة يهودي، فقال: أو ليست نفسا، إذا رأيتم الجنازة فقوموا"(رواه البخاري)، وكان الأستاذ النورسي يرى أن "الإنسان هو الروح المنفوخ في جسد الأرض فمتى خرج البشر خربت الأرض وماتت "[34].

❷ المساواة بين الناس جميعا في أصلهم: وارتباطهم برابطة النسب المشترك، فالإنسانية كلها متصلة في نسبها الأعلى، يدل على ذلك الحديث النبوي من خطبة الوداع: « أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد كلكم لآدم، وآدم من تراب»(رواه مسلم) وعلى هذا كانت المساواة أصلا بين الناس (لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى)(رواه مسلم)، وما اختلاف الناس في أجناسهم ولغاتهم إلا آية من الآيات الدالة على الخالق سبحانه: (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) (الروم:21)، المحققة لغاية التعارف بين الناس، شعوبا وأمما : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات:13)، ولإبراز هذه المعاني العظيمة كان الأستاذ النورسي يتحدث عن

الإنسان قبل أن يتبعه بخاصية الإيمان لإدراكه أن الإنسان كما يقول: " بسر تنوير الإيمان لجهاته يخرج من ضيق الزمان الحاضر، والمكان الضيق وإلى ساحة وسعة العالم، ويصير العالم كبيته، والماضي والمستقبل زمانا حاضرا لروحه وقلبه، فكأن الإنسان له عمر معنوي يمتد من أول الدنيا إلى آخرها يستمد ذلك العمر من نور حياة ممتدة من الأزل إلى الأبد"[35] .

❸ حرية العقيدة: إذ (لا إكراه في الدين) (البقرة:255) فليس من أحكام الشريعة ولا منهجها في دعوة الناس، إكراههم على الدخول في الإسلام، و كتاب الله يُعلّم المؤمن أن يدعو دعوة لا مسؤولية معها عن استجابة المدعو وهدايته(ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء)(البقرة271) مذكرا إياه بقدرة الله إن شاء على ذلك : (ولو شاء ربكم لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)(يونس: 99)، وأن اختلاف الناس سنة ماضية من سنن الله في خلقه : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) (هود: 118).

❹ حرمة دماء الناس وأموالهم : مسلمين أو غير مسلمين – مالم يكن هؤلاء أعداءا أو محاربين- فلقد رتبت الشريعة الإسلامية على سفك دم غير المسلم من المعاهدين دية، تأكيدا لحرمة النفس الإنسانية إلا بحق:(وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله) (النساء:91)، كما حرم الإسلام العدوان ومجاوزة حدود العدالة : (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (البقرة:189).

❺ البر و القسط أصل في معاملة غير المسلم : أما حربُه فحالة مترتبة عن الاعتداء، وليست أصلا في التعامل معه : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (البقرة: 193)، وقد كان للنورسي موقف حضاري راق من هذه القضية، حين جاءه بعض أفراد القبائل الكردية في شرق الأناضول، معترضا على فكرة المساواة في الحرية مع الروم والأرمن، فأجابهم قائلا:" إن حريتهم ألا

يظلموا ولا يخل براحتهم وهذا أمر شرعي، أما ما زاد على هذا فهو تعد منهم تجاه طيشكم وسوء تصرفكم أو استغلال لجهلكم"[36]

وفي الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة الممتحنة ، قانون للعلاقة بين المسلم وغير المسلم، وذلك في قوله سبحانـــــــــه : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهـــم فأولئك هم الظـــالمون).

كما أن الاستعمال القرآني لعبارتي البر (قمة الإحسان)، والقسط (قمة العدل)، فيه إشارة إلى منهج التعامل الإسلامي المطلوب مع غير المسلمين، ممن لم يعتدوا على هذه الأمة، قتالا في دينها، أو إخراجا لأبنائها من ديارهم، وحسب هذه الآية دلالة أن كلمة البر تطلق على ما ينبغي أن تتصف به أسمى أنواع العلاقات الإنسانية، وهي علاقة الأبناء بالآباء (بر الوالدين)،كما سماها القرآن الكريم نفسه(وبرا بوالدتي و لم يجعلني جبارا شقيا) (مريم:31)، وفي تفسيره للآية (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) (آل عمران الآية 63) يقول الأستاذ النورسي: " إن الأفراد والجماعات مع أنهم قد عجزوا عن معارضة القرآن إلا أن المدينة الحاضرة قد اتخذت طورا مخالفا وأخذت تعارض إعجازه بأساليبها الساحرة"[37] ويقول تعقيبا على هذا الكلام، وأحد من علماء الدين المسيحيين، وهو: د. توماس ميشل* " وفي هذه الحالة فإن القرآن ينصح ويوصي بالوصول والإتفاق على" كلمة سواء" مع أهل الكتاب، وهذا معناه وصول المسلمين والنصارى إلى وعي وإدراك متبادل ومشترك بأن للمجتمعات المؤسسة على الإيمان بالله هدف مشترك وهو أن تكون شاهدة على القيم الإلهية وسط الحضارة الحديثة، وذلك بعيدا عن زعم "صدام الحضارات"[38]

إن التحدي الأساسي الذي يواجه تأسيس قاعدة فهم مشتركة للذات وللغير بين الحضارة الإسلامية وغيرها في هذه المرحلة، هو ذلك المتعلق بالجواب على سؤال لا يزال يطرح باستمرار: هل يملك المسلمون اليوم أن يكونوا نموذجا حضاريا صالحا

للتبادل والتعايش والحوار؟ ذلك أن الخلاف إنما هو على قدرة الأسس التي قامت عليها هذه الحضارة سابقا على حمل البناء الحضاري الجديد في عالم اليوم، وذلك مبدأ يضيء لنا أحد أهم المجالات التي ينبغي توجيه الجهود نحوها، وهو استعادة القيم الإسلامية في مستويات النظر والتفكير والحوار والفعل بدلا من مجرد استعادة تمثلاتها التاريخية، التي لا يبدوا أنها —حتى لو أمكن الوعي بها على أوسع نطاق بين محاورينا– قادرة على التأسيس للحوار من جديد في هذه اللحظة من تاريخ العلاقة بين عالم المسلمين وغيره.

إن الوعي المبكر بهذه الحقيقية لدى الأستاذ النورسي هو الذي مكننا من هذه المادة الفكرية الغنية التي عنيت بقيم اللقاء مع الآخر من منطلق الاعتزاز بتلك القيم، والإيمان المطلق بصلاحيتها، ومحاولة بيانها للناس أجمعين مهما كلفه ذلك وفي مختلف الظروف، بل وفي أحلك أيام المحن التي مر منها ويحسن مثالا لذلك التذكير بحادث وقع للأستاذ مع خال القيصر الروسي القائد العام للجبهة الروسية "نيكولا نيكولافيج" الذي كان يزور معسكر الأسرى الذي اعتقل فيه النورسي إبان الحرب، فقام جميع الأسرى لأداء التحية ما عدا سعيدا النورسي، فلاحظ القائد العام ذلك ورجع ومر ثانية أمامه فلم يقم له كذلك، وفي المرة الثالثة وقف أمامه وجرى الحوار الآتي بينهما بواسطة مترجم القائد:

– القائد: الظاهر أنك لم تعرفني.

– النورسي: بل لقد عرفتك، إنك نيكولا نيكولافيج. خال القيصر والقائد العام في جبهة القفاقس

– إذن فلم تستهين بي؟

– كلا، إنني لم أستهن بأحد، وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

– وما ذا تأمرك عقيدتك؟

إنني عالم مسلم، أحمل في قلبي إيمانا، والذي يحمل في قلبه إيمانا هو أفضل من الذي لا إيمان له. ولو أنني قمت لك لكنت قليل الاحترام لعقيدتي، لذلك فإنني لم أقم.

واعتبر القائد كلام النورسي وصفة عدم الإيمان إهانة له ولجيشه، بل وللقيصر، وأمر بتشكيل محكمة عسكرية للنظر في الأمر، وتشكلت المحكمة، وقدم إليها النورسي بالتهم التي بدت للقائد الروسي، ويلح الأسرى من الأتراك والألمان والنمساويين عليه بالاعتذار، لكنه رفض بإصرار.

وتصدر المحكمة قرارها بالإعدام ويحضر في يوم التنفيذ ثلة من الجند على رأسهم ضابط روسي لتنفيذ الحكم، فيطلب النورسي مهلة لأداء واجب أخير ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ركعتين. وهنا يأتي القائد العام ليقول له بعد فراغه من الصلاة:

– أرجو منك المعذرة، كنت أظنك قد قمت بعملك قاصدا إهانتي ولكنني واثق الآن أنك تنفذ ما تأمرك به عقيدتك وإيمانك. لذا فقد أبطلت قرار المحكمة.

بكلمة، إن خطاب الأمة الإسلامية اليوم هو أحوج ما يكون إلى المضي في اتجاه التأكيد على القيم والمبادئ وثباتها وقدرتها– كما كانت دوما– على إقامة صرح حضارة عظيمة، وذلك هو بداية إدراك الخصوصية الثقافية والحضارية للأمة وامتلاكها لنموذجها البديل الذي به تنظر إلى غيرها وعلى أساسه تحاوره، أما الحديث عن مظاهر التسامح في الحضارة الإسلامية و الذي أصبح اليوم يتخذ شكل دفاع عن النفس ومحاولة لتبرئة الذات من ذنب متوهم، فقد يصير في بعض المناسبات واللقاءات خاصة منها تلك الفكرية والأكاديمية التي تلتقي فيها النخبة من العلماء والدارسين أشبه ببيع الماء في حارة السقائين، أو كالذي يحمل التمر إلى هجر كما يقال، فما أحوج هذا الجهد إلى المضي في اتجاه التأسيس والبناء بذل استنفاده في معارك التبرير والدفاع.

2 أخطار مشتركة تهدد مصيرا مشتركا.

ثـــمة مبدأ أساسي من المبادئ التي تتأسس عليها نظرية الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي فيما يتصل بفلسفة المستقبل، ذلكم هو مبدأ اللقاء حول المشترك،

فلقد كان النورسي يدرك أن حجم الخطر الذي يهدد مسار الإنسان بشكل عام ومتساو لا يصلح للتعامل مع التحديات الهائلة التي يفرضها، إلا اللقاءات مع كل من يعنيهم أمر هذه التحديات فيمد الجسور مع الجميع مسلمين وغير مسلمين إذ يقول: "في الوقت الحاضر، يجب الاتفاق ليس فقط مع الإخوة المسلمين، بل حتى مع الروحانيين المتدينين من النصارى، وعدم الالتفات إلى مسائل الاختلاف وعدم الخوض في المنازعات، ذلك لأن الكفر المطلق يشن هجومه"[39].

بل إن النورسي وهو بصدد تأسيس قاعدة فكرية أخلاقية مشتركة لمواجهة التحديات التي يعرفها عالم اليوم، قد مضى يفتح حوارا مع الجزء الذي يعتبره غير نافع من أوربا، أما أوربا النافعة للبشرية التي قدمت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العلم والإنصاف كما يقول فلا أخاطبها في هذه المحاورة40 فرؤيته المستقبلية الثاقبة كانت دافعا له إلى محاولة إقامة حوار مع أوربا (بوصفها جزءا من الغرب) الذي يرى أنه تردى في دركات التيه نتيجة لآثار الفلسفة المادية "فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة"[41].

وعلى هذه القاعدة يميز النورسي في "رسائل النور" أثناء محاورته بين أوربا النافعة وأوربا الفاسدة لا لمجرد التمييز، ولكن لتحقيق غاية الإفادة من عناصر الإيجابية عند الآخر، تماما كما ينبغي له هو أن يفيد في إصلاح جوانب الخلل من بنائه الحضاري من معاني القرآن الكريم التي جاءت هادية للإنسانية جمعاء مسددة مسار حضارتها. "فإذا ما كان لها ذلك فسوف تدرك أنها تبقى دون حكمة القرآن، هذه الحكمة التي تقبل الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة، وتجعل رضا الله ونيل الفضائل غاية وهدفا عوض (المنفعة) وتتخذ دستور التعاون أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع، وتلتزم رابطة الدين بدلا من رابط العنصرية أو القومية السياسية"[42]. ضعيفة في وجه الأخطار الوجودية التي تهدد مستقبل الحضارة، بل مستقبل الإنسان – مطلق الإنسان – وهي قاعدة تلقي على كل من يحمل هذه الرسالة تبعة من الأمانة والمسؤولية في حمل هذه القيم قولا وعملا، فكرا وتمثلا إلى الحياة لتعيد صياغة الإنسان فتسدد مسار حضارته.

لقد عاش الأستاذ النورسي تحديا أشبه بالتحدي الذي يعيشه اليوم العالم المسلم، والمفكر المسلم، والمثقف المسلم، إذ فرض عليه الدفاع عن قيم الرسالة، رسالة هذه الأمة في واحدة من أدق مراحلها وأخطرها، ولنتأمل موقفه عند احتلال مدن تركيا ودخول قوات الحلفاء إستانبول يوم 13 نونبر سنة 1919 وتسريح الجيش العثماني وحسم المعركة العسكرية،فقد أدرك حينئذ أن معركة الأفكار والقيم التي تبقي الأمة حية غير قابلة للتسليم بحقها لعدوها. كانت لا تزال قائمة، بل كانت في أوج ضراوتها، فكان النورسي فارسها حقا، إذ ما إن دخل القائد الإنكليزي استانبول حتى كانت رسالة "الخطوات الستة" التي كتبها النورسي مهاجما الاحتلال مفندا دعاواه، شادا من عزائم أهل الوطن، معليا هممهم في الصبر والمصابرة والممانعة والصمود.

كما أن العصر الذي عاشه النورسي ووصفه لنا هو أشبه ما يكون بعصرنا. يقول: "إن أهل هذا العصر الذي اغتر بنفسه وأصم أذنيه عن سماع القرآن أكثر من أي عصر مضى، وأهل الكتاب منهم خاصة أحوج ما يكونون إلى إرشاد القرآن الذي يخاطبهم بـــ" يا أهل الكتاب .. يا أهل الكتاب" حتى كأن ذلك الخطاب موجه إلى هذا العصر بالذات، إن لفظ أهل الكتاب يتضمن معنى أهل الثقافة الحديثة أيضا، فالقرآن يطلق نداءه في أجواء الآفاق ويملأ الأرض والسبع الطباق بكل شدة وقوة وبكل نضارة وشباب، فيقول: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم)(آل عمران: من الآية 63)[43] .

إن لقاء أهل القرآن وأهل الكتاب أمر قرره القرآن الكريم وحدد عناصره وحدوده في:

-ألا نعبد إلا الله.

-لا نشرك به شيئا.

-لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله.

وأي لقاء غاب فيه عنصر من تلك العناصر الثلاثة ملغى، ونتيجته محددة في قوله تعالى: "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" آل عمران: من الآية 63) .

الهوامش

1 سبق لمفهوم " CIVILISATION " أن انتقل إلى العربية مترجما بمصطلح (مدنية) منذ أوائل القرن التاسع عشر، حيث ترجم بهذا المعنى في كتاب " إتحاف الملوك الألباب بسلوك التمدن في أوروب"ا على عهد محمد علي، كما استخدم رفاعة الطهطاوي في كتابه "مناهج الألباب المصرية " مفهوم (التمدن) بنفس المعنى، ولعل استعمال مصطلح " مدنية "هو الأوفق في التعبير عن المعنى المترجم في السياق العربي.

2- أحمد حمدي محمود (الحضارة) ص: 5 . دار المعارف 1977. وينظر محمد عبد السلام كفافي (الحضارة العربية) ص:8 ز دار النهضة العربية بيروت1970.

3 - اللمعات: ص 283.

4 - الكلمات: اللوامع

5 - المثنوي العربي ص: 425.

6 - إشارات الإعجاز ص: 425.

7 - إشارات الإعجاز ص: 227.

8 - المكتوبات: ص: 611.

9 - صيقل الإسلام ص: 369.

10 - اللمعات ص: 257.

11 - الشعاعات ص: 135.

12 - علي عزت بيغوفيتش "الإسلام بين الشرق والغرب" ص: 98 مؤسسة بافاريا – بيروت 1994.

13 - ينظر د. يلماز أوزاقبنار: حضارة القرآن ضمن" نحو فهم عصري للقرآن الكريم" رسائل النور نموذجا ص: 542 الطبعة الأولى سوزلر للنشر.

14 - ينظر للتفصيل في الموضوع : حمود عمليات: منهج المعرفة والاستدلال عند النورسي، وقائع الجلسة الدراسية في عمان 1997 ص: 64. المحرر: إبراهيم العوضي الطبعة الأولى 1997.

15 - الكلمات 289.

16 - ثمت مقولة شهيرة لباكون توضح هذه الثقافة التي توظف العلم لخدمة السيطرة والتحكم في الموجودات يقول فيها: "لكي تسيطر على الطبيعة يجب عليك أن تدرسها أولا" To governe nature you must first study it

17 - اللمعات ص 585.

18 - ينظر: فرانسيس فوكوياما " نهاية التاريخ" ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة 1993.

19 اللمعات ص: 176.

20 ينظر: د. عبد الوهاب المسيري " إشكالية التحيز" مجموعة من الباحثين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ط 1 فرجينيا 1995.

21 فؤاد السعيد، " التحيزات المعرفية في الرؤية الغربية الحديثة للعالم" ضمن (إشكالية التحيز) مرجع سابق ج 1 ص 153.

22 IGNACIO RAMONET (le monde diplomatique)n°554 MAI 2000

23 ALDOUS HUXLEY. BRAVE NEW WORLD. GEORGE ORWELL 1984

24 من لطائف الأقدار أن هذه العبارة التي نوردها في معرض البحث عن جوانب الحوار الحضاري في فكر الأستاذ النورسي قد قيلت حوالي سنة 1910 – 1911 في جواب الأستاذ على من اعترض على دعوته لإقامة صداقة بين المسلمين والنصارى مستشهدا بالآية " لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء" المائدة ...

25 الماكدونالدية: أسلوب العيش الغربي / الأمريكي تحديدا القائم على النزعة الاستهلاكية التي لا تعرف الحدود، والذي تمثل سلسلة محلات الوجبات السريعة رمزا له، بشكل يجعل من الاستهلاك نفسه محور الحياة وهدفها، من خلال دوامة إنتاج الثروة بهدف الاستهلاك الذي ينتج الثروة من جديد.

26المحاكمات ص: 37–38 إستانبول 1977.

27 المكتوبات ص: 289

28 د. يلماز أوزاقبنار: حضارة القرآن ضمن" نحو فهم عصري للقرآن الكريم" رسائل النور نموذجا ص: 542 الطبعة الأولى سوزلر للنشر.

29 اللمعات ص: 137.

30 اللمعات ص: 199.

31 صيقل الإسلام ص: 369.

32 الملاحق في فقه الدعوة، كليات رسائل النور ج 7 .

33 ينظر: د. أحمد عبد الرحيم السايح، الحوار القرآني على ضوء رسائل النور مرجع سابق ص: 684–685.

34 إشارات الإعجاز ص: 235.

35اللمعات ص: 474–475 بتصرف.

36 المناظرات ص: 20 إستانبول 1977.

37 الكلمات. الكلمة الخامسة والعشرون ص: 472.

* أمين سر السكرتارية اليسوعية للحوار بين الأديان في روما، إيطاليا.

38 د. توماس ميشل: الحوار والتعاون بين المسلمين والنصارى في فكر بديع الزمان سعيد النورسي ضمن" نحو فهم عصري للقرآن الكريم" مرجع سابق ص: 640

39 – ملحق أميرداغ ص 202.

40 – اللمعات ص 176.

41 – اللمعات ص 176.

42 – الكلمات ص 472 – 473.

43 – الكلمات ص 471 – 472.